مركز القطان للبحث والتطوير التربوي

العددان الحادي عشر والثاني عشر - أيلول 2003

نشرة دورية تصدر أربع مرات سنوياً عن
مركز القطان للبحث والتطوير التربوي
رام الله – فلسطين

مفتتح

هل بات حصان طروادة خلف أسوار المدينة؟!

علّقت «آنا» ذات الثمانية أعوام قائلة: «هناك أناس لا يستمعون للآخرين، هناك من الكبار من يعتقدون بأنهم يعرفون أكثر من الصغار!» كان ذلك قبل شهرين خلال مناقشة لمشهد مسرحي مبني على قصة كاساندرا وحصان طروادة المشهورة في إلياذة هوميروس. وقد قامت بتقديم المشهد فرقة تعمل في مجال «المسرح في التربية» في قرية كارنو في ويلز- بريطانيا. في هذه الحكاية يتحايل اليونانيون الغزاة على أهالي طروادة بعد أن فشلوا في اقتحام المدينة بعد حصار طويل لأسوارها. فيبحر الغزاة بسفنهم مبتعدين عن الأسوار، بعد أن تركوا حصاناً خشبياً ضخماً ظنَّه أهالي طروادة هدية من اليونانيين لهم، وبعد حوارات ونقاشات كثيرة قرر أهل الرأي والمعرفة والسلطة من الكبار إدخال الحصان إلى المدينة، ولم يستمعوا لصوت آت من الفتاة كاساندرا التي حذرتهم من نهاية وخيمة إذا فعلوا ذلك. لم يستمع أحد لها... وأكثر من ذلك، فقد عوقبت بالحبس في البرج الشمالي.

وكان إدخال الحصان هو النهاية التي أودت بطروادة وبصمودها الأسطوري، بعد أن تقافز من جوف الحصان الخشبي مئات من الجنود اليونانيين، وانقضّوا على المدينة، وتمكنوا بحيلتهم التي انطلت على «معرفة» كبار طروادة من احتلالها.

تحمل هذه الحكاية دلالات كثيرة، ويمكن أيضا توظيف مجازاتها كاستعارات لإنتاج معان عديدة لحالات واقعية معاصرة. إن واحدة من الدلالات ذات المغزى يتمثل في ما علَّقتْ به «آنا»! وهو لا يبدو تعليقا جديدا طبعاً. ولكنه تعليق قديم جديد، أثير ويثار في معظم الثقافات الإنسانية وربما جميعها، وبصور متفاوتة.

في هذا العدد

- التفوّق في التعليم
- تدريب المعلمين على استخدام الدراما كوسيلة تعليم
- لا تنظر بعيداً
- الكتابة في حقل تعليم اللغة وخلفياتها الفلسفية
- رسائل بلا حدود
- تجربتي في تدريس الكتابة الإبداعية للصف السابع
- الثقافة العلمية ومناهج العلوم
- التقويم في الرياضيات
- الرياضيات في الاتجاه الآخر.... مرة أخرى
- تجربتي في البحث الإجرائي «مراعاة أنماط التعلم داخل غرفة الصف»
- استخدام التكنولوجيا في تعليم الرياضيات وأثرها في تنمية عنصر التشويق عند الطلبة
- التعزيز التربوي في الواقع المدرسي
- تنمية التفكير الإبداعي لدى الأطفال
- قبول النفس والآخرين
- «رعاية الموهوبين والمبدعين... أولوية في عصر العولمة»
- رؤى تربوية في عامها الرابع ندوة تقييمية بين واقع المنجز وإمكانات الآتي
- الدورات التدريبية الصيفية الثالثة
- سلسلة المساقات الصيفية
- Cooperative Learning versus Traditional Learning Settings
- Discover Your Town
- إشراقات دولوزية في: القراءة والكتابة والمعنى والحياة

هيئة التحرير:

المحرر المسؤول: د. فؤاد المغربي (مدير المركز)

مدير التحرير: وسيم الكردي (المنسق)

ليانا جابر، نادر وهبة، مالك الريماوي، موسى الخالدي، محمد أبو ملوح، وائل كشك، أنس العيلة، دعاء جبر، مها قرعان، رائد شماسنة

إن اعتقاد الكبار بأنهم يعرفون أكثر يدفعهم، في الغالب، وفي العادة أيضاً، إلى اتخاذ القرارات الخاصة بالصغار وبالنيابة عنهم، وبالتالي تقرير يومهم وغدهم!. فالكبار هم العارفون، المجربون، المحنكون، الحكماء...! أمّا قراراتهم هذه فتغلَّف بتبريرات الحرص والمعرفة والتجربة!

حينما كنت أستمع لتعليق تلك الفتاة الصغيرة، والجرأة التي اتسمت بها، وعدم تلكئها أمام خمسين شخصاً من مختلف الأعمار، تبادر لي السؤال الذي يتبادر كثيرا لكثير منا: ما الفرص التي تُمنح لأطفالنا كي يتأتى لهم اتخاذ قراراتهم وتشكيل تصوراتهم وتحديد حاجاتهم بناء على رغائبهم هم أنفسهم؟ هل يحدث ذلك في البيت، في المدرسة، في النادي، في المخيم الصيفي، في الفرقة الفنية، في الملعب،...؟ وهل يمكن لنا أن نناقش في لحظة ما «جوهرية حكمتنا وحنكتنا وادعاءاتنا» ككبار، وبأن ما نفعله هو تهيئة صغارنا كي يكونوا «أمل المستقبل وبناته»؟ إن ذلك يذكّر أيضا بمقولة ذائعة: «أطفال اليوم هم رجال الغد»، فهذه العبارة وشبيهاتها من العبارات تنطوي على دلالات ظاهرة وأخرى كامنة! فهي تنطوي على دلالتين ظاهرتين تماما سواء أكان استخدام هذه العبارة مقصودَ الرسالة أم لا. فالدلالة الأولى هي دلالة اجتماعية، فهؤلاء الأطفال (ذكورا وإناثا في الدالة اللغوية) سيغدون رجال الغد، ولكن انحرافا عن الدلالة اللغوية الأولى سيعني بأنهم سيغدون «رجال الغد»، وهذا ينطوي على إزاحة للإناث جانباً، مما يدلل على أن المستقبل يُبنى عبر «رجال الغد» الذين هم «أطفال اليوم». وقد يحمل الكثيرون موقفا دفاعيا يتمثل في أن هذه الدلالة التمييزية ليست صحيحة، حيث أن العبارة تحمل دلالة مجازية، وما يساق من حجج في العادة مثل أن استخدام الصيغة الذكرية هو فقط في حالة تغليب الكثرة!. ويبدو الأمر هنا صارخاً أكثر إذا جاء على هذا النحو، لأن اعتقاداً ضمنياً مفاده أن الذكور هم أكثر عدداً من الإناث دائماً! وفي هذا مجانبة للحقيقة في كثير من السياقات المجتمعية التي توظَّف فيها هذه العبارة. كما ينطوي أيضا على أن الإناث، وإن كنّ أكثر عددا مثلا، فهن أقل شأنا في حالتيّ القلة والكثرة لأن صيغة التذكير هي الحاضرة دائما، مع أن الأمر يبدو تبسيطا إذا ما انبنى على فكرة القلة أو الكثرة، فالأمر في حالتيه يشير إلى حضور اجتماعي فعلي هو حضور ذكوري، وبهذا فإن كان الكبار لا يستمعون للصغار من الذكور، فإنهم قد يغلقون الآذان أكثر حين يكون الصوت صوتا من الصغيرات الإناث! وما يؤكد ذلك أكثر فأكثر، أننا لن نجد تعبيرا يقول مثلا «أطفال اليوم هم نساء الغد»، وإذا استعمل هذا التعبير على هذا النحو فإنه، في الغالب، سيحمَّل بدلالة ثقافية تحطُّ من شأن هذا المستقبل، وليس أدل على ذلك من تعبير دارج له صيغ كثيرة، فقد يقال عن صغير «راح يطلع مَرَةْ». وإذا استُعمل التعبير ليعكس دلالة أخرى مغايرة فيتوجب أن يكون السياق فاقعاً إلى درجة كبيرة كي يحمل هذا المعنى.

أما الدلالة الثانية الكامنة في هذه العبارة فستخبرنا بها – طبعا – سياقات توظيفها. وإذا نظرنا إلى سياقات التوظيف هذه، فلأنها ستبدو ظاهريا ذات دلالة إيجابية، فكأنها تقول بأن ازدهار المستقبل أو انحطاطه يستند على هؤلاء الصغار، وما نقوم بفعله معهم الآن! فإذا ما اشتغلنا على تأهيلهم للغد وفق هذا المنظور السابق، فإننا في الحقيقة نعمل على أمرين: أولهما أننا نتجاهل حاجاتهم ورغباتهم الراهنة، ونشتغل على حاجاتهم ورغباتهم المستقبلية. وثانيهما يُظهِرُ أننا نعرف سمات المستقبل وخصائصه سلفاً (وبنبوئية مفرطة) ونقرر طبيعته ومساراته!.

فما معنى ذلك كله؟!

قد يعني ذلك أن الأطفال هم مشروع مؤجل، ومساهماتهم الحقيقية في تطوير مجتمعاتهم هي مساهمات ستأتي لاحقا حين يتم تأهيلهم تأهيلا مناسباً، وبهذا المعنى فهم ليسوا منتجين! وهم «قاصرون»، وبهذه النظرة سيغدون، وكأنهم عبء اجتماعي اقتصادي ثقافي تربوي يقع على كاهل الكبار، وهذا يتطلب رفعه والتخلص من ثقله طبعاً، وبعد أن ينجز الكبار مهمتهم، حينها يصبح الصغار قادرين على تحمل المسؤولية واتخاذ القرارات وتوجيه المسارات، وربما سيلعبون لعبة «المعرفة» نفسها مع صغارهم!. ولن يتم ذلك عبر تبادل الخبرات والمعارف في سياق الممارسة الاجتماعية الحوارية، بل سيتم عبر عزل المعرفة عن سياق الممارسة للفرد سواء أكان صغيرا أم كبيرا.

ولذلك، فإننا سنرى، عبر مثال واحد من حقل عملنا كعاملين في التربية من بين عشرات الأمثلة، كيف أن هذه النظرة مجسدة فعلياً في كثير من جوانب الحياة التربوية التي يتم فيها إقصاء الأطفال عن دائرة الفعل، فيغدون في دائرة الذين يقع عليهم الفعل! إن ذلك يحدث كثيراً في المدرسة، وقد حدث، ولا زال يحدث في العملية الجارية لإنتاج مناهج فلسطينية جديدة. فهذا مثال شديد الوضوح على إقصاء الطلاب الذين لا يعرفون مصلحتهم! وعلى ذلك الإدعاء بأن التربويين يعرفون أكثر!. وبالتالي فلم يتم إشراكهم في تقرير ما سيتعلمونه والكيفية التي سيتم بها ذلك والغاية منه. وهذا في جوهره يقول بأن الكبار هم الذين يتخذون القرارات التي تنطوي على «الحكمة» التي تدَّعي «بأن الكبار يعرفون أكثر»، كما أشارت «آنا» التي رأت في صوت «كاسندرا» منقذاً، وفي قرارات الكبار بإدخال الحصان الخشبي كارثة، وهي الكارثة التي تحققت.

ربما لم يعد حصان طروادة الخشبي مرئيا في زمننا هذا، لكننا «بمعرفتنا» ككبار لا نسحبه إلى داخل المدينة فقط، بل إننا نحتفي بعملية السحب أيضا، ونفيض في ذكر محاسن ما نسحب، ونلهجُ بفضائلنا في فعل ذلك!

فهل يمكن لنا أن نصغي السمع لكاسندرا التي يملأ صوتها الفضاء، أم أن أسماعنا أعطبتها روعة الحصان الخشبي وضخامته وسحره؟!

وسيم الكردي